الجزء ١٢ المجلد ٩

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) كانون الاول سنة ١٩٢٩ الموافق جمادى الاولى والثانية سنة ١٣٤٨ هـ

# كتاب المساواة

بقلم

«مي»

ارسل الي المجمع العلمي بكتاب اسمه «المساواة» بقلم «مي» وتقدم الي بأن أنتقده وأبين رأيي فيه بحسب عادته في الاقتراح على بعض اعضائه نقد الكتب المعروضة على الانظار المستهدفة لسهام الافكار فلبيت طلبه وارسلت بالأسطر التالية الى مجلة المجمع . والنقد اليوم جارٍ كما لا يخفى على الطريقة الاوربية لا على الطريقة العربية والمراد بذلك ان الطريقة الاوربية في النقد لا تنحصر في الاستحسان والتنبيه والاشارة الى المحاسن وقيد الأوابد دون التنويه على مواطن الضعف والتساؤل عما اذا كان الاولى ان يقال هذا بدل ذاك اولا تصحيح الخطإ اذا كان من الجنس الفاضح بخلاف النقد العربي الذي لا يجيز الاشارة الى مكان مؤاخذة او محل ركاكة الا في النادر فتراه كله عبارة عن تقريظ وتمجيد واسجاع يكثر فيها ذكر الغرر والدرر والبدائع والروائع والفرائد والخرائد والكواكب والكواعب والمآثر والمفاخر مع جملة كم ترك الاول للآخر الى غير ذلك مما ليس في الحقيقة بنقد بل هو محض ثناء واطراء . ولا يؤخذ من ذلك ان العرب لا يعرفون النقد وان هذه الصناعة مكروهة عندهم كلا بل هم امهر فيه من غيرهم واغلظ قلباً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وارهف لساناً ولكنه لا يكاد النقد يجري على لسان احدٍ منهم حتى ينقلب الى الذم ويختلط بالقدح ويجيز الى العدوة الاخرى من العداوة كأنه لا يجوز عندنا ان ننقد بدون بغض ولا ان نؤاخذ بلا تحامل ولا ان نغمز من غير طعن فلا توسط عندنا في الامر وليس امام المنتقَد عندنا الا الصدر او القبر فإما حب ومدح وإما بغض وهجو واما ابيض يقق واما اسود فاحم وليس للبنفسجي عندنا محل

اما الطريقة التي نحن سائرون عليها اليوم فهي طريقة النقد الحديثة التي سبق للعرب على اسلوبها شيء قليل وهي التي تنوه بالحسنات ولا تغفل عن الهنات وهي طريقة التصفح بدون صفح ولكن بدون تعنت والاستقراء بغير ضعف ولكن بغير تشدُّد

فكتاب المساواة الذي نسجت بردته «مي» قرأناه قرآءة معجب بحسناته مستعذب لنكاته مستحسن لموضوعه مستلطف ادخال هذه المباحث الغريبة في العربية مبتهج بنسق انشآء هذا المصنف وعلو طبقة عبارته ولولا انّا من مريدي طريقة النقد الحديثة لأنشدنا :

لا ولا مستحسَن من بعد مَيّ

ان المساواة لم توجد في الحقيقة في الدنيا ولا وطئت قدمها سيارتنا هذه في شيء من الاشياء الاّ في الموت وكأن الله سمح بين الناس بكثير من التفاوت فاراد ان يظهر آية عدله التام الذي لا ريب فيه فجعل المساواة بينهم في الموت ليرفع به ما هنالك من ثقل التفاضل وقسوة الفرق ويلحق المقصر بالسابق والموفور بالمرزق والمظلوم بالظالم والصحيح بالسقيم والمثري بالمعدم فيعزي المغبونين على غبنهم ويسلي المحرومين على حرمانهم بان يروا بأعينهم ان الملك والمملوك والغني والصعلوك والرفيع والوضيع والسمين والمهزول صاروا في الآخر الى جورةٍ واحدة . وربما قيل وايّ تعزية لانسان لزمته مصائب طول حياته وغيره يتنعم امامه اذا استوى هو وذلك المتنعّم في الموت وهل هذه المساواة في الساعة الاخيرة تجبر كل ما وقع بينهما من الفرق مدة سنين طوال في مال او جاه او صحة فالجواب ان السعيد في حياته يشق عليهِ فراق الدنيا ما لا يشق على البائس المسكين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الذي يكون فراقها مريحاً له من آلامه فالموت هو الحق الأحق الذي تتجلى فيه المساواة وترتفع الفروق بين البشر اما المدة التي قبل الموت من المهد الى اللحد فالمساواة فيها لم توجد ولا في مقام

وان تحرير كتاب ككتاب المساواة بهذا القلم البليغ مع عجز كثير من الكتاب عن محاكاته في معنى او مبنى هو برهان كافٍ على عدم المساواة لان الادب ايضاً هو من النعم التي تتفاضل فيها الحصص ومن الميادين التي تتفاوت فيها الآماد اكثر من غيرها

على ان فقدان المساواة من الدنيا ليس بسبب ان يترك الانسان حبلها على غاربها ويقول ما دام الله قد اوجد هذا فقيراً وذاك غنياً فقد جف القلم وانقطع الأمل من تغيير اقامة الله او تبديل سنة الانتخاب الطبيعي بل كلما اتسعت هوى الفروق بين الطبقات وتناءت المسافات بين الافراد الذين يقضي العدل الالهي ان يكونوا سواءً تحتم على ارباب الوجدان السليم والشعور الحي ان يخففوا ما بين البشر من الفروق بقدر الاستطاعة البشرية فيأخذوا من مال المثري للمعدم ومن عمل السليم للمعوّه ومن معرفة العالم للجاهل ومن جاه العزيز للذليل ويسدّوا ما امكن من تلك الهوى العميقة ويلطّفوا قسوة التميُّز بقوانين التساوي ويحثوا في وجه العز تراب الزجر فان لم يكن عدل تام ومساواة كاملة فعلى الاقل نهوض بالطبقات الدنيا الى مساواة الطبقات العليا ان لم يكن في جميع شؤون الحياة ففي الامور الضرورية . فكما ان طبقتي الاغنياء والفقراء متساويتان في تنسم الهواء وشرب الماء كذلك يجب السعي في ان تكونا متساويتين في الغذاء الذي به قوام الحياة والدواء الذي به تسكين الالم او دفع المرض وان كان لا يتيسر التساوي في عدة اسباب الرفاهية والوان الطعام ودرجة وثارة المهاد . وهذا هو الذي حدا كثيراً من علماء الاجتماع ورؤساء الطبقات المحرومة الى طلب المساواة ونشدان النصفة على تفاوت في درجات الطلب واختلاف في طرق الوصول الى الغاية منهم الذي يجعل للمساواة حداً ومنهم من يرسلها على اطلاقها ومنهم من يجعل صراع الطبقات بالقلم واحراز الاكثرية ومنهم من لا يتوقف فيه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن استعمال القوة والضرب بالسيف اذا لاحت الفرصة

فكتاب « المساواة » بقلم « مي » هو تأليف جامع لاقطار المسألة الاجتماعية من أولها الى آخرها . لا اظنه يوجد كتاب آخر في العربية وعى ما وعاه من هذه المباحث تمًّا منها بكل مهم مهملاً كل مملّ ولعمري انه واجب على ناشئة العرب ان يقرأوا جميعاً هذا التأليف الممتع الذي يغنيهم عن اقتراء التآليف العديدة في علم الاجتماع ونظريات الاريستوقراطية والديموقراطية والرق والعبودية والاشتراكية السلمية والاشتراكية الثورانية والفوضوية والعدمية فهو زبدة ممخوضة في هذا الباب

والمساواة وان لم توجد على وجه الارض فالبحث في تيسير اسبابها واجب ووضع شبحها امام اعين المتملكين والمتمولين ضربة لازب تخفيفاً من غلواء الاغنياء وكفاً من غرب الاقوياء واجتهاداً في ايتاء كل قسطه من السعادة جهد الطاقة

وايُّ علم اجزل فائدة من تاريخ النشوء البشري الذي يعلم الانسان منه كيف بدأ تحكم القويّ في الضعيف وهي النقطة التي اشد ما كان الانسان فيها قرباً من الحيوان الاعجم وشبهاً بالضواري المفترسة التي قويها يأكل ضعيفها . فالمبدأ في الحقيقة بين الانسان والحيوان واحد ولكن صور الاكل مختلفة فاكل الآدمي للآدمي يفترق عن اكل الحيوان للحيوان بكون ذاك معنوياً والآخر صورياً . ولا جرم ان الاديان السماوية لم تأتِ الا لتلطيف اخلاق البشر ونشر المساواة ولتذود عن السخال براثن السباع . وقد حذا المشترعون من الفلاسفة حذو الانبياء فوضعوا القوانين التي ترد القوي عن الضعيف وتضمن المساواة في الحقوق . ولكن لم تصل منهم طبقة الى جعل المساواة في الاموال وجعلها عدلاً للاعمال فلما عظم الفرق بين طبقتي المتمولين والعَمَلة الى ان صارت نفقات المتمول على كلابه تسد حاجة عشرات من عائلات الفعلة المعدمين ثار الخلاف بين هاتين الطبقتين وقيض الله للصعاليك اناساً من قبيل عروة بن الورد يجمعون شملهم فنظموا طبقة مستقلة كثيرة العدد وقاموا يطالبون بالمساواة على اطلاقها بدون قيد ولا قصر ونشبت من ذلك حرب الطبقات التي كان اشهر من شرعها كارل ماركس وقد اجاز فيها استبداد الصعاليك بالاغنياء بمقابلة استبداد الاغنياء بالصعاليك من قبيل دفع الظلم بالظلم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم يعلم التاريخ ان الاشتراكية خرجت من الضعف الى القوة وحققت شيئاً من مبادىء كارل ماركس ولا ان الصعلكة استولت على المملكة الا في الروسية منذ سبع سنوات وفي بلاد المجر نحو بضعة اشهر . واما في سائر الممالك فما زال للمتملكين الكلمة العليا وما برح العملة عاجزين عن الاستئثار بالحكم على تفاوت في درجات القوه ولا عبرة بوزارة ماكدونالد في انكلترة فإنها وان كانت تسمى بوزارة عمال فانها لم تغير من اوضاع هذه المملكة شيئاً لان القوة لم تزل فيها لطبقة المتملكين ولأن رأس المال لا يزال فيها هو الاعلى والعمل هو الادنى . بل اكثر البلدان بعض الناس فيها عندهم المال كالتراب وبعضهم اجوع من كلبة حومل والشرائع السماوية اقرب الى المساواة وارفق بالضعف واحدب على الفقر من القوانين البشرية بل لو نظرت الى الانبياء في معايشهم الخاصة لوجدتهم اشتراكيين واي اشتراكي عندك اكثر من السيد المسيح صلوات الله عليه واي مخفف من عناء الفقر وكافل لضرورات الفقراء مثل شرع الزكاة في الاسلام مما لو قام به المسلمون على حقه لم يبق فيهم معدم واحد . وكذلك الشرائع الالهية هي التي حملت الناس على الغاء الرق ولله در «مي» حيث تقول :

( وقد انتقى السيد المسيح تلاميذه من الخاملين ومضى ينادي بالمساواة والغفران وحب الاعداء لأن الجميع ابناء الله يدعون وعزز مذهبه العظيم بمثاله في حياته الطاهرة وصار النصارى يرددون هذا النداء الجميل في الصلوات والاحتفالات ففعل فعله وملأ القلوب املاً وتعزيه على ان الدين المسيحي اقرب الى النظريات وعلى نقيضه الاسلام فانه نظري وعملي معاً . وجد العبودية عند شعوب سبقته فاقتبلها ولكنه لطفها ايما تلطيف وعلى مقربة من تعاليمه العالية ونصائحه الحكيمة اوصى باليتيم والضعيف والرقيق وكان الطائع الاول النبي العربي ( صلوات الله عليه ) ذاته الذي بكى عبده الميت كما يبكي الكريم صديقاً عزيزاً فكانت حالة العبد في دين محمد من احسن حالات امثاله اما الاعتاق والدعوة اليه فمن امجد صفحات تاريخ الاسلام) اهـ

هذا كلام من فهم روح الاسلام واطلع على وصاياه وعزائمه بشأن تحرير الرقاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وليس كلام من يهرف عن الاسلام بما لا يعرف صنيع كثير من الاوربيين . ولما احتضر النبيُّ (ص) كان آخر كلامه التوصية بالمرأة والرفيق

ولقد احاطت «مي» بتاريخ الحركة الاجتماعية في العالم ببلاغة تكاد تكون منقطعة النظير فلا تقرأ كلمة الا ولها معنى كبير ولا جملة الا لو نثرت كنانتها لجاء عنها تاريخ . ومن الطف ما جاء فيه ان الحركة البشرية دائمة وانها ملازمة للبشر ومن اصل جبلتهم ولو لم تكن سائرة في جميع الاحيان الى الامام . فقد اوردت هنالك فلسفة عالية يجدر بكل مفكر ان يقف امامها معجباً فقالت : «يتعذر علينا فهم ما هو «الوراء» وما هو «الامام» في معاني المكان والزمان والذهن ورغم ذلك يمكن القول ان اتجاه التاريخ البشري بمعنى التقدم والتحسن وان كثرت حركاته الرجعية واللولبية الى الامام ولو على الجثث ليست كلمة حماسة شعرية قالها غوته الالماني فحسب وانما هي صوت الخليقة القاهر»

ثم ذكرت فلسفة اخرى هي غاية في عمق الغور فقالت: «لا بد من تنوع الصور وتعدد الطبقات فلولا التعدد والتنوع ما كانت المدنية ولا كان الوجود الحسّي ولو لم يكن للفروق من فضل سوى شحذ العزائم وارهاف القوى لكفى لتقبلها»

ومن ابدع ما جاء في هذا الكتاب وانصعه دلالة على سعة فكر الكاتبة وسمو درجة ادراكها ما ذكرته بشأن العبودية تحت صور مختلفة فقد اشارت الى ان المرأة هي في الحقيقة عبدٌ عندما تظن نفسها حرّة وذلك «ليس بالجور والضغط والتعذيب ولكن باللطف والتدليل والتحبُّب . والا فماذا تعني هذه الحلي وهذه الجواهر ؟ بل ماذا يعني تغني الشعراء بجمال الوجه وملاحة القوام . النساء المسكينات يتهن دلالاً ان يكنّ محبوبات لجمالهنّ ولو تفكرن قليلاً لأدركن ما في ذلك من معنى التحقير لجميع قواهن حتى الانثوية نفسها . وهؤلاء بعد ان يشترين بالمال والحلي والتملق ينبرين فجأة مطالبات بحقوقهن مناديات بالاستقلال والتحرير وانا التي اكتب هذا يشوك الآن ساعدي سوار دار حوله فانظر اليه واضحك ولا ازيحه عني . لقد توارثت النساء حمل القيود في صورة الحلي حتى عشقنها» اه . فانا اجاوب حضرة السيدة مي على هذا المعنى المبتكر الذي لم يسبقه اليها احد من كون النساء اماء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مستعبدات للحلي والجواهر عندما يظنن انهن حرائر وينادين الحرية الحرية . اقول ليس كل العبودية مما يئن الانسان تحت نيره بل من العبودية ما هو مستعذب وما يكره فراقه افلا ترى العاشق لمعشوقه عبداً وهو يستعذب من التتيم بهواه ما لا يستعذبه بأوسع حرية ؟ فالغادة يستعبدها الحلي لانها تعشقه وكذلك الغادة تعشق ان تعشق فتقبل عبودية التملق ويغيب عنها ان الرجل عندما يظهر لها تعبده ويوهمها انه متيم اثرها انما يستخدمها في الحقيقة لهواه وانه يكون في تلك الحالة عبداً لحاسة نفسه لا لها وهي تخال انه عبدها وما هو الا عبد احساسه الذي يندمج بها .

ثم اشارت الى عبودية اخرى وهي التي يقوم بها من يزعمون انهم هم الذين الغوا الرق وحرروا العبيد فسكبت هذا الموضوع في قالب يستوقف كل قارىء ويأخذ بمجامع كل قلب وما عهدت كلاماً اشد تأثيراً من كلامها في وصف ذلك الرياء الفظيع قالت :

« لقد اتفقوا على ان العبودية كانت وانقضت واظنني كتبت منذ هنيهة ان عصرنا يفخر بالغاء متاجرة الانسان بالانسان وقد استجمعت فكري للمرة الاخيرة قبل ان القي بالقلم جانباً فتململت في حافظتي جميع معاني الأسى ورأيت اشباح الذل متجمهرة في رحاب خيالي كشرت عن انيابها تتهددني ومدت بمخالبها نحوي لتفترسني جيش عرمرم من ارواح العبودية والرق اخذ يصفق باجنحته السوداء صارخاً : نحن احياء نتألم فكيف تذكرين الموتى وتنسيننا » فدنوت من جماعة وقلت « من انتم » فصاحوا « نحن نزلاء اللبانات وضحايا الاشغال الشاقة الخ »

ثم قالت : ومررت نحو جمع آخر انحنى يشتغل والعرق يقطر من ذرات وجهه فصرخ « نحن الشعوب المغلوبة وما غرامة الحرب الا رق القرون الوسطى » فقلت « وهل من وسيلة اخرى ليستعيض الظافرون عما خسروه من مال ورجال » فهزوا أكتافهم وانحنوا على الارض متظلمين « ما هذا الا رق القرون الوسطى » وتحولت الى جهة اخرى والى اخرى والى اخرى وانى توجهت لافيت اقواماً ينبعث من صدورها التظلم والعويل وتخيم فوقها الاجنحة السوداء رجال ونساء شيوخ واطفال مثرون ومعدمون عبيد الوراثة عبيد العاهات وعبيد الامراض وعبيد الجهل وعبيد الاوهام وعبيد الطمع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعبيد الحاجة وعبيد الحياء الانساني وعبيد الغرور وعبيد الكذب وعبيد الحسد وعبيد الاهل وعبيد الابناء وعبيد الغرباء يزحفون من كل ناحية كالجحافل الجرارة وهدير شكواهم كهدير العباب المتلاطم فصرخت جزعاً « من انتم من انتم » والعبيد جميع العبيد عبيد الماضي والحاضر والمستقبل اجابوا كجوق رهيب « نحن العبودية الدائمة » قلت كلا كلا ! لقد الغيت العبودية وانتم احرار ارفعوا ايديكم لا سلاسل فيها حركوا اقدامكم لا قيود فيها تثقلها فقالوا «السلاسل والقيود اقل رموز العبودية هولاً . القيود في دمائنا واهلنا واوطاننا القيود في رغباتنا وحاجاتنا . فصرخت بملء صوتي « اقول لكم انتم احرار ولا عبودية في القرن العشرين» ! فقالوا « اذا محيت من العبودية صورة رسمت اخرى لان اصل العبودية باقٍ على كل الدهور » اه

هل من كاتب مهما علا كعبه ونفذت بصيرته وبهر تصويره يمكنه ان يصور رثاء الانسانية البشع باوفى من هذه الصورة الرائعة وهل يوجد لهذا الهول افصح من هذا القول ؟ قد بلغت « مي » حد الاجادة واستولت على امد الاحسان في اظهار فظاعة هذا المشهد الهائل الذي معناه ان الامم التي تدعي كونها رافعة منار الحرية قد الغت رق الافراد وسنّت رقّ الامم وسلطت على من لم يرد ان يخنع لهذا الرق ويسلك في رقبته تلك السلسلة السيف والنار ومطر الديناميت من فوق المنازل لا يستثني امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً فانياً ليت شعري ما هو الفرق بين الهمج الذين يأكلون لحوم البشر في غابات خط الاستواء و بين المتمدنين الذين يمطرون الالوف من الاطفال والنساء والعاجزين وابلاً من الديناميت ويطيرونهم اشلاءً متناثرة في السماء قسراً للرجال من ذويهم على قبول نير الاستعمار ؟

وقد ساقت سيدة المنشئات « مي » تاريخ الديموقراطية من اول الدهر الى يومنا هذا بما تناول امم الشرق والغرب ولم يدع حادثاً عظيماً ولا فكراً عالياً بينهما الا احصاه وذكرت نمو الفكرة الديموقراطية في الشرق مع حداثة عهدها الا انها لم تغفل عن كون الديموقراطية ليست بدعاً في هذه البلاد فقالت ان اسمها عندنا جديد ولكن معناها غير جديد « لان الاسلام كان ابداً ديمقراطي المبادىء ديمقراطي الاساليب وهل من ديمقراطية اتم من ان نرى الملوك يتخذون لهم من الجواري زوجات شرعيات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويرفعونهن الى مراتب الملكات او هل من ديموقراطية أوفى من ان يخرج من الطبقة الدنيا قوم يرتفعون بكفاءتهم الشخصية ورجاحة عقولهم فيحملون اعظم الالقاب ويقلدون اجل المناصب » وهل من ديموقراطية اساسها اوطد من هذه الآية الكريمة « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ثم هل يأتي من ديموقراطية لسانها افصح من قول الشارع العربي صلوات الله عليه : ليس لعربي فضل على عجمي ولا لعجمي فضل على عربي الا بالتقوى . وقوله عليه السلام : لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لأمرت بقطع يدها . وهل من مساواة اوضح وأتم من حكم قوله صلى الله عليه وسلم ( ألا إن بعض آل بيتي يرون انفسهم أولى الناس بي . وليس الأمر كذلك : إنما أوليائي المتقون من كانوا وحيث كانوا . الا اني لا أحل لآل بيتي ان يفسدوا ما أصلحت )

ومن قول عمر رضي الله عنه ( والله لئن جاءت الاعاجم بالاعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة . فلا ينظر رجل الى القرابة وليعمل لما عند الله فان من قصر به عمله لم يسرع به نسبه ) هذا مع ما لا يحصى من الشواهد والآثار على الديموقراطية في الاسلام . وكونه ينفي الطبقات ويرفع الفروق ولا يجعل واسطة بين الخالق والمخلوق . وماذا عسى ان نورد من هذا الباب . وماذا عسى ان نحصي من رمل عالج وقد اتت مي على تاريخ الاريستوقراطية بدون تفصيل ولكن باجمال محيط وبتصوير كاف ان يدع في ذهن كل قارىء صورة مطابقة . وذكرت مزايا ابناء البيوتات بانصاف مدهش وميزان قسط ونظرت ثم بعين الحقيقة لا بعين الميل واستشهدت بمآثر ذوابات الاريستوقراطية الانكليزية ونوهت باعمالهم الكبيرة ولم تنزه تلك الاريستوقراطية عن كل عيب ولكنها اشارت الى ان عيبها اخف من غيره وما ابدع قولها « فهي قليلة الأذى قليلة الظلم » تريد ان الظلم لا بد منه وانه من شيم النفوس وان التماس استئصاله بأسباره هو من قبيل المحال وانما يسعى الناس في تقليله ما امكن . وقد اخطرت ببالي هذه الجملة جملة دعائية كنا نسمعها كثيراً في جبل لبنان لاسيما من النساء وهي « الله يؤيد حكمك ويقلل ظلمك » كأنما رأوا قطع الظلم بتمامه متعذراً فارادوا الدعاء بالممكن لا بغيره

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولاجل ان تخفف وطأة التميُّز وتهون على الناس سيادة النبلاء والاشراف على العامة اشارت الى اريستوقراطية اخرى فيها من التميز ما في النسب الشريف والمجد القديم ان لم يكن اكثر وهي الاريستوقراطية المالية والعلمية والعبقرية التي ترفع اصحابها الى افق اعلى جداً من سائر الآفاق ثم انت ببحث فلسفي دقيق جليل عن تأثير المساعي بازاء الاقدار وخالفت قول ابن الوردي «كل من سار على الدرب وصل» وقالت يشفع بهذه النظرية كونها منظومة شعراً والحقيقة انه ليس كل من سار وصل بل المدعوون كثيرون والمختارون قليلون . اما انا فاقول للسيدة «مي» ان الامام زين الدين عمر بن الوردي لم يكن يجهل ان المدعوين كثيرون وان المختارين قليلون وان السائرين لا يحصون وان الواصلين افراد وانما هي جملة اراد بها الترغيب والحث على السير . ثم ربما كان له هناك نظر آخر وهو ان السائر ولو لم يصل الى الغاية مادّةً فقد يصل اليها معنى بمجرد امعانه في السير واجتهاده في الوصول مما يكون قدوةً لغيره وحاثًّا لسواهُ . افلا ترى ميًّا تقول هي نفسها ما معناه ان فضل المجاهدين اذا اصابهم الخذلان في جهادهم يكون اعظم لانهم اذا جاهدوا بصدق واخلاص ثم انكسروا ازداد عطف الناس عليهم وامتد رواق الرفة من فوقهم فكأنهم وصلوا ولو لم يكونوا وصلوا . ولقد اشرت في رثاء محمود سامي البارودي الى هذا المعنى بقولي:

ما كان يطلب الا مجد امّتهِ ولا يريد لها الا عزيز حِمى
فان يكن طاش سهم عن رميّتهِ فكم ملومٍ على رمي سواهُ رَمى
لا يحسن الأمر الا من تعوّده ما كل راكب خيلٍ يحفظ اللُّجُما

ثم : لا تبعدنَّ ولا يقصر ثناك فلم تجرَّ الا إباء الضيم والشّمما
كم قاصدٍ لم تعب مسعاه خيبته وفائدٍ لم ينل خِزيًا أن انهزما
ورب مسدي يدٍ يلقى البلاءَ بها وكم شقي سعيدٍ بالذي جَرَما

وقال الجاحظ : وكم من صاحب حرب منكوب وهو الليث على براثنهِ مع تمام العزيمة وشدة الشكيمة ونفاذ البصيرة ومع المعرفة بالمكيدة والصبر الدائم على الشدة اه

الا ان ميًّا لا تجد فضل الاخلاص كافيًا في نظر الخلق الذين يأبون ان يتوجوه الا على شرط النجاح فتقول : ان الحياة لا تكرم ولا تكبر الا من صارع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فغلب فاما الذين يجاهدون فيقعون في الآخر صرعى فتاتي عليهم نظرة إشفاق ثم تنساهم لان وقت البطولة ضيق لا يسع التحسر على الفريسة والضحية «اهـ» وهي جملة عالية جداً ولكن يصعب عليَّ ان اقبلها مرسلة مُسَجلة لانه كم من بطل ذهب صريعاً فكانت صرعته هي العلة في قيام بطل آخر يبتسم له الحظ بخلاف سلفه فيكون صارعاً وكم من تحسُّر كان هو الاصل في اخذ الثار او في لمّ الشعث وقد قلت من قصيدة :

اذا بكت الاقوام حان ابتسامها وعند بكاء المُزن ضحك الحدائق

وما زال في الزمان منتدح للتحسر ومتسع للبكاء وقيل ان الامة التي لم تنزل بها المصائب فليس لها تاريخ ولعمري ما اجمل قول «مي» في تعليل الفروق الاجتماعية «كما ان سطح الارض ينبسط هنا مروجاً وسهولاً ويتشامخ هناك مروجاً وقمماً كذلك للطبيعة البشرية سهول واودية وقمم» فان لم تكن هذه الجملة مترجمة عن لغة اجنبية وكانت «مي» هي امها فهي وحدها كتاب

وانك لتجد التصوير والتخييل على اقصى ما يمكن من الابداع في انشاء هذا الكتاب «المساواة» وترى الحجة الدامغة والحكمة البالغة متساوقتين مع اللفظ الفصيح والبيان الجزل بما قل ان يمر بك نظيره في مصنف آخر ومن امثلة ذلك : «حيال الذروة الاريستوقراطية يزينها تاج الملك تحفر الطبيعة البطاح لسيل العبودية الجراف . ما اقامت ارتفاعاً الاّ اوسعت تخومه تجويفاً . حيث يتغلب قوم يندحر قوم . هنا القصور والصروح وهنا الاكواخ والخصاص . حتى الصخة ذاتها فتل متتابع» فهنا اكرر ما قلته عند مثال سابق : ان كانت مي لم تعرب هذا عن لسان أجنبي وكان هذا الفري فريها فتكون ارتقت من ذروة التخيُّل الى ما لا تتطال اليه قريحة شاعر مهما تسامت طبقتهُ

وقد كررت هذا الاستدراك مرتين وهو السؤال عما اذا كانت هذه الجمل وري زندها ام لا ؟ وذلك لكوني وجدت اثر التعريب في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب بالرغم من فصاحة العربية ومن امثال كثيرة حديثة العهد وقصص وشواهد شرقية لا يمكن ان تكون واردة في اصل اوربي . وعلى فرض انه لم يكن الجميع معرّباً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فإنك حيث اتجهت من هذا التأليف تجلّى لك الاسلوب الافرنجي الذي لا يختلف عن غيره من اساليب المعربات الاّ بكون المعرّب هنا اصح عربيّة واقوى ملكة من غيره بحيث يهش له القارىء ولا يشمئز منه كما يشمئز من الكتب المعرّبة التي لم تصادف مترجمين رواة من العربية فجاءت لا يكاد يكون فيها من العربي الاّ الحروف

ومع هذا فقد تمر بكتاب المساواة بتعابير اصلها افرنجي مثل « كانت له اهمية » ومثل « ولهذه القاعدة شواذها »

ولا ينبغي ان يكون هناك تدقيق لغوي جدير بالمحققين مثل لفظة « طبعي » نسبة الى طبيعة على القياس مما التزمه الكتّاب المصريون لهذا العهد وان كانت « مي » في النسبة الى « بديهة » بقيت على الاصطلاح المعهود ولو على خلاف القياس فقالت « بديهي »

ولكن هذا التدقيق اللغوي لم يمنع من الوقوع في بعض اغلاط لا بأس بالتنبيه عليها . ومن منا الذي عصمه التدقيق من الخطإ ؟ وكم من متعنّت حاول تخطئة الاساتذة والائمة ووفق الى الصواب في بعض الشيء ولكنه لم يوفق الى عصمة نفسه . فأمّا ما اخذته على كتاب « المساواة » من الهفوات فقوله « الثوروية » نسبة الى الثورة وصحتها « الثورية » وان قيل ان الثورية تلتبس بالمنسوب الى الثور فالجواب ان القرينة تكفي لدفع الالتباس على انه يمكن العدول الى لفظة ثوَراني بدل ثورة ويقال حينئذٍ « ثوَرانيّة »

ومن ذلك « اشهر الحرب » وصوابه شهر الحرب بدون الف . ومنه « فأرعبت الناخبين » صوابه ( رَعبَت ) جاء في لسان العرب: ولا تقل أرعبه . ومنه « اخطر » بمعنى انذر ولا تأتي بهذا المعنى وانما تأتي بمعنى اذكر بالبال وبمعانٍ أُخر من الخطر اي القدر والخطر الذي بمعنى غاية السبق في الرهان

ومنه « رضخ » بمعنى خضم وهو خطأ وقع فيه كثيرون من جماتهم هذا العاجز ولكنني تنبهت له قديماً وما زال بعضهم يستعمله بمعنى خضم والحقيقة ان رضخ هو اعطى ويأتي بمعنى كسر وذلك للنوى والحصى وغيرها من اليابس ومنه « تظاهروا بجيازها » اي بجيازتها . ومنه « اغاظ » والاصح غاظ . ومنه « إناطة » والأصح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نوط . ومنه « نكران » ولم يرد وان وقع فيه كثيرون . ومنه « التاريخ المثبوت » والصحيح الثابت او المُثبَت . ومنه « مغلوطة » والصواب مغلوط فيها . ومنه « سراية القانون » وهو اصطلاح عامي . ومنه استعمال « الاعدام » بمعنى القتل وهو اصطلاح تركي والاعدام هو الفقر المدقع . ومنه « اقتبلها » بمعنى قبلها او تقبلها ولم يرد اقتبل بهذا المعنى وانما اقتبل الانسان امره استأنفه والخطبة ارتجلها . ومنه استعمال « المصادقة » بمعنى التصديق وهو عامي . ومنه وضع « ابدل » بغير موضعها وهو غلط مستفيض لا يكاد يسلم منه احد في هذا العصر فإنهم يقولون مثلاً ابدل زيداً بعمرو اي جعل عمراً محل زيد والحال ان هذا التعبير معناه في اللغة جعل زيداً محل عمرو قال الله تعالى : « ومن يتبدّل الكفر بالايمان » اي يتخذ لنفسه الكفر مكان الايمان . واما التطوُّر والانتاج بمعنى التوليد فهما مما اصطلح عليه الكتّاب اليوم اضطراراً لاسيما «التطور» بمعنى الخروج من طور الى طور مما لم يجدوا كلمة تغني عنه .

وهذه الهنات الهينات لا تنقص محاسن هذا الكتاب الذي املاه قلم بلاغة يدلّ على شدة تعمُّق صاحبه في المباحث الاجتماعية وقدرته على حصر المواضيع الطويلة العريضة في الكلم اليسيرة فإن درجة بلاغة الكاتب هي على قدر ما حجّ من مشارب العلم والله يعطي من يشاء بغير حساب

وللسياسة مكان في هذا الكتاب يحف به الانصاف وتقارنه اصالة الرأي وما احلى هذه العبارة منه « وما استعدت المانيا نصف قرن وفاجأت — او زعموا انها فاجأت — اوربا بالحرب الضروس الاّ توصلاً الى انتزاع ما يمكن انتزاعه من عدوّ حسبت اندحاره امراً واقعاً »

واما تشبيه السيدة « مي » الوهابية بالاشتراكية فهو امرٌ قد اشكل علينا فهمهُ لان الاشتراكية مذهب اجتماعيٌ والوهابية مذهب ديني اذ هو اجتهاد في مذهب احمد بن حنبل رضي الله عنه فما عرفنا وجه الكاتبة في هذا التنظير وحبذا لو جادت علينا بتفسير مرادها

وقد اختارت لكلمة « انترناسيونال » مؤتمر العمال الدولي وهي تميل الى استعمال لفظ انترناسيونال بدون تعريب . ونحن نميل الى وضع لفظة « شعوبي » بدل دولي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لأن معنى انترناسيونال بالافرنجية « بين الشعوب » والترك ترجموها بقولهم « بين الملل » ولم يكن معناها بين الدول لتأتي فيها بكلمة دولي . وقد سبق ان العرب نسبوا الى الشعوب فقالوا « شعوبية » و« شعوبي » وصاروا يفهمون بهما من يكره العرب والحقيقة ان الناس بعد تبسط دولة الاسلام في الارض انقسموا الى قسمين قسم يتعصب للعرب اصل الدولة وجذم الملة وهم الذين يقال لهم في اوربا الحزب القومي او ناسيونال national وقسم لا يجعل للعرب مزية على العجم ويناشد بالمساواة وهم الذين سماهم العرب « شعوبية » ومبادئهم تضاهي مبادىء الحزب الذي في كل امة اوربية اليوم يسمى انترناسيونال ورأيهم ان الانسانية واحدة ولا عبرة عندهم بالقومية .

مرسين في ٧ اغسطس سنة ١٩٢٤ شكيب ارسلان